@ 354 @ ليضل قوما) ! 2 2 ! (ولا نصير) ^ . ^ (وما كان ا ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون إن ا بكل شيء عليم * إن ا له ملك السماوات والأرض يحي ي ويميت وما لكم من دون ا من ولي ولا نصير) ^ يعني أن ا تعالى إذا من على قوم بالهداية ، وأمرهم بسلوك الصراط المستقيم ، فإنه تعالى يتمم عليهم إحسانه ، ويبين لهم جميع ما يحتاجون إليه ، وتدعو إليه ضرورتهم ، فلا يتركهم ضالين ، جاهلين بأمور دينهم ، ففي هذا دليل على كمال رحمته ، وأن شريعته وافية ، بجميع ما يحتاجه العباد في أصول الدين وفروعه . ويحتمل أن المراد بذلك ^ (وما كان ا ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون) ^ فإذا بين لهم ما يتقون ، فلم ينقادوا له ، عاقبهم بالإضلال ، جزاء لهم ، على ردهم الحق المبين ، والأول أولى . ^ (إن ا بكل شيء عليم) ^ فلكمال علمه وعمومه علمكم ما لم تكونوا تعلمون ، وبين لكم ما به تنتفعون . ^ (إن ا له ملك السموات والأرض يحيي ويميت) ^ أي : هو المالك لذلك ، المدبر لعباده بالإحياء والإماتة ، وأنواع التدابير الإلهية ، فإذا كان لا يخل بتدبيره القدري فكيف يخل بتدبيره الديني ، المتعلق بإلهيته ، ويترك عباده سدى مهملين ، أو يدعهم ضالين جاهلين ، وهو أعظم تولية لعباده ؟ فلهذا قال : ^ (وما لكم من دون ا من ولي ولا نصير) ^ أي : ولي يتولاكم ، بجلب المنافع لكم ، أو ^ (نصير) ^ يدفع عنكم المضار . ^ (لقد تاب ا على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم * وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من ا إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن ا هو التواب الرحيم) ^ يخبر تعالى أنه من لطفه وإحسانه ^ (تاب على النبي) ^ محمد صلى ا عليه وسلم ^ (والمهاجرين والأنصار) ^ فغفر لهم الزلات ، ووفر لهم الحسنات ، ورقاهم إلى أعلى الدرجات ، وذلك بسبب قيامهم بالأعمال الصعبة الشاقات ، ولهذا قال : ^ (الذين اتبعوه في ساعة العسرة) ^ أي : خرجوا معه لقتال الأعداء في غزوة (تبوك) وكانت في حر شديد ، وضيق من الزاد والركوب ، وكثرة عدد مما يدعو إلى التخلف . فاستعانوا با تعالى ، وقاموا بذلك ^ (من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم) ^ أي : تنقلب قلوبهم ، ويميلوا إلى الدعة والسكون ، ولكن ا ثبتهم ، وأيدهم وقواهم . وزيغ القلب ، هو انحرافه عن الصراط المستقيم ، فإن كان الانحراف في أصل الدين ، كان كفرا ، وإن كان في شرائعه ، كان بحسب تلك الشريعة ، التي زاغ عنها ، إما قصر عن فعلها ، أو فعلها على غير الوجه الشرعي

. وقوله : ^ (ثم تاب عليهم) ^ أي : قبل توبتهم ^ (إنه بهم رؤوف رحيم) ^ ، ومن رأفته ورحمته ، أن من عليهم بالتوبة ، وقبلها منهم ، وثبتهم عليها . ^ (و) ^ كذلك لقد تاب ^ (على الثلاثة الذين خلفوا) ^ عن الخروج مع المسلمين في تلك الغزوة ، وهم : (كعب بن مالك) وصاحباه ، وقصتهم مشهورة ، معروفة ، في الصحاح والسنن . ^ (حتى إذا) ^ حزنوا حزنا عظيما ، و ^ (ضاقت عليهم الأرض بما رحبت) ^ أي : على سعتها ورحبها ^ (وضاقت عليهم أنفسهم) ^ التي هي أحب إليهم من كل شيء ، فضاق عليهم الفضاء الواسع ، والمحبوب الذي لم تجر العادة بالضيق ، منه ، وذلك لا يكون إلا من أمر مزعج ، بلغ من الشدة والمشقة ، ما لا يمكن التعبير عنه ، وذلك لأنهم قدموا رضا ا ورضا رسوله على كل شيء . ^ (وظنوا أن لا ملجأ من ا إلا إليه) ^ أي : تيقنوا ، وعرفوا بحالهم ، أنه لا ينجي من الشدائد ، ويلجأ إليه ، إلا ا وحده لا شريك به ، فانقطع تعلقهم بالمخلوقين ، وتعلقوا با ربهم ، وفروا منه إليه ، فمكثوا بهذه الشدة نحو خمسين ليلة . ^ (ثم تاب عليهم) ^ أي : أذن في توبتهم ، ووفقهم لها ^ (ليتوبوا) ^ لتقع منهم ، فيتوب ا عليهم . ^ (إن ا هو التواب) ^ أي : كثير التوبة والعفو ، والغفران عن الزلات والنقصان . ^ (الرحيم) ^ وصفه الرحمة العظيمة التي لا تزال تنزل على العباد ، في كل وقت وحين ، في جميع اللحظات ، ما تقوم به أمورهم الدينية والدنيوية . وفي هذه الآيات دليل على أن توبة ا على العبد ، أجل الغايات ، وأعلى النهايات ، فإن ا جعلها نهاية خواص عباده ، وامتن عليهم بها ، حين عملوا الأعمال التي يحبها ويرضاها . ومنها : لطف ا بهم ، وتثبيتهم في إيمانهم ، عند الشدائد ، والنوازل المزعجة . ومنها : أن العبادة الشاقة على النفس ، لها فضل ومزية ، ليست لغيرها ، وكلما عظمت المشقة ، عظم الأجر . ومنها : أن توبة ا على عبده ، بحسب ندمه وأسفه الشديد ، وأن من لا يبالي بالذنب ، ولا يحرج إذا فعله ، فإنت توبته مدخولة ، وإن زعم أنها مقبولة . ومنها : أن علامة الخير وزوال الشدة ، إذا تعلق القلب با تعالى ، تعلقا تاما ، وانقطع عن المخلوقين . ومنها : أن من لطف ا بالثلاثة ، أن وسمهم بوسم ، ليس بعار عليهم فقال : ^ (خلفوا) ^ إشارة إلى أن المؤمنين